

علاوة عمارة: نص غير معروف حول جماعتين مبتدعتين بالمغرب الوسيط

Alloua Amara: An unknown text about two innovators in the Middle Maghreb

منصوري يحيى

مامي محمد *

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)

Mensouriyaya19@gmail.com

جامعة علي لونيسي، البليدة 2 (الجزائر)

Mami05moh@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
من خلال النازلة التي تطرق إليها الداودي في كتابه الأموال، تم التعرف على مجموعتين مبتدعتين في المغرب الوسيط خاصة في المغرب الأوسط وهما برغواطة و سسالة، وقد حددت هذه النازلة أيضا موطن وهوية كل من قبائل كتامة وأشير وعجيسة، لقد حُكم على سُسالة بنفس الطريقة التي حُكم بها على برغواطة في الفقه المالكي. وفي الواقع فإن الداودي لم يكن موافقا على دفع كلا الجماعتين " سُسالة وبرغواطة " الجزية ، وقد أمر بسليهم وبيعهم ومطاردتهم عندما أصر هذا الفقيه بأن هاتين الجماعتين لم تكونا لا مجوسيتين ولا يهوديتين ولا مسيحيين بما أن هؤلاء وجب عليهم دفع الجزية. وكلمة كفار التي أُطلقت على سُسالة وبرغواطة تظهر — بالنسبة للفقهاء — أن هؤلاء "المبتدعة".	<u>تاريخ الإرسال</u> 2022/11/19 <u>تاريخ القبول</u> 2023/01/16 <u>الكلمات المفتاحية:</u> الداودي، كتاب الأموال، برغواطة، سسالة، المبتدعة.
Abstract:	Article info
Through the calamity that al- Daoudi dealt with in his book al- Amwal, two innovators were identified in the middle Maghreb, especially in the central Maghreb, and they are the Barghawata and Susawala. By Barghawata in Maliki jurisprudence. In fact, al-	<u>Received:</u> 2022/11/19 <u>Accepted:</u> 2023/01/16

Dawudi did not agree with the payment of the tribute by both groups, the Suwala and Barghawata, and he ordered them to be plundered, sold, and chased when this jurist insisted that these two groups were neither Magi, nor Jews, nor Christians, since they had to pay the tribute. And the word "infidels" that was applied to Suwala and Barghawata shows - for the jurists - that these are "innovators".

Key words:

Daoudi, Book of Funds,
Barghawata,
Susawala,
Innovator.

مقدمة:

بالرغم من أن الفتح العربي لبلاد المغرب كان موضوعا للعديد من الأعمال، لا يوجد حسب علمي من سلط الضوء على أسلمة الشعب البربري بعد الحملات العسكرية الأولى في القرن الأول الهجري، ثم إن نتاج الكتابة التاريخية لا تعطي لنا إلا معلومات شحيحة حول فتح وأسلمة المغرب الأوسط، وهذا ربما بسبب أن هذه المنطقة كانت تسيطر عليها الحياة الريفية. غير أنه ومنذ سنوات عديدة سمح استخدام النوازل الفقهية كمصادر تاريخية بمعرفة مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية للعالم الإسلامي الوسيط. و لقد أشار كلود كاهن (Claude Cahen) إلى أهمية هذا النوع من المصادر بالنسبة للباحث: "المصادر الفقهية هي الوحيدة في الغالب أو تقريبا من يخبرنا عن مختلف مظاهر الحياة الخاصة و العامة في العصر الوسيط الإسلامي." و بالخصوص و بشكل دقيق فهذه المصادر هي النوازل الفقهية و التي عرفها ك. كاهن "بأنها الأجوبة التي قدمها الفقهاء لطلبات الفتوى التي تقدم بها القضاة أو آخرون بالنسبة للمسائل الصعبة و الجديدة " التي لم يرد فيها نص" التي صادفتهم أثناء ممارسة وظيفتهم¹.

إن هذه الاستشارات تدور حول حوادث واقعية، والتي يمكن أن نحدد إطارها الزمني والمكاني، وعليه فهي ذات أهمية كبيرة جدا". إن الاسم المستخدم في وسم هذه الاستشارات الفقهية تختلف حسب مقاطعات العالم الإسلامي الوسيط: يطلق عليها النوازل في المغرب الأقصى والأندلس، والمسائل بالنسبة لإفريقية، والفتاوى بالنسبة للمشرق. والحال أن إباضية المغرب استخدموا المصطلحات الثلاث وأضافوا مصطلح "الأجوبة"، و حسب اعتقادي فهم أول من أسس جامع للفتاوى في إفريقيا الشمالية².

من بين أقدم المؤلفات الفقهية المغاربية المالكية نجد " كتاب الأموال " لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي والذي له أهمية لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديني للمغرب وصقلية. والحال أن نازلة من بين نوازل هذا الفقيه أخرجت من الظلام مجموعتين مبتدعتين في المغرب الأوسط و الأقصى، البرغواطيون و المعروفون نوعا ما من مصادر أخرى، و سسالة غير المعروفين إلى حد الآن³.

1- ترجمة لشخصية الداودي :

إن أقدم من خصص ترجمة للداودي هو القاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)، القاضي المرابطي الشهير لسبته، وحسب معلوماته فإنّ أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي هو أصيل المسيلة أو بسكرة ، وعاش في طرابلس أين ألف تعليقا على " الموطأ " ثم إستقر في تلمسان أين توفي في (ت 1011/402-12).⁴ ثم إنّ ابن بشكوال مؤرخ السير الأندلسي من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يخبرنا بأن الداودي درّس في تنس والمسيلة وفي بسكرة. لقد كان عصامي التكوين، فضلا عن تتلمذه - حسب مصادر أخرى - على يد الشيخ إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله الزبيدي المكنى بالقلانسي (ت 971/359)، كان هذا الأخير متضلعا في علم الكلام وأعتقله الفاطميون بالمهدية يعد الداودي من بين أكبر شيوخ المدرسة المالكية في المغرب في القرن العاشر الميلادي بعد ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي. و قد كان مختصا أيضا في علم الحديث وفن النظر وألف العديد من الكتب والتي لم يصل إلينا معظمها⁵.

● كتاب النامي في شرح الموطأ : تعليق على موطأ الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ/795م) مؤسس المدرسة المالكية، حيث توجد نسخة مخطوطة منه في جامع القرويين في فاس تحت رقم 175.

● الوافي في الفقه: كتاب في الفقه الإسلامي حسب المذهب المالكي.

● النصيحة في شرح البخاري : وهو شرح لجامع الأحاديث للإمام البخاري (ت 256/869).

● الإيضاح في الرد على القدريّة : وهو تأليف في علم الكلام .

- كتاب الأصول : وهو يبدو أنه يتناول علم أصول الفقه .
- كتاب البيان : مضمون هذا الكتاب مجهول ⁶.
- كتاب الأسئلة و الأجوبة في الفقه : هذا المصنف هو في الفقه الإسلامي . وتوجد نسخة منه في مكتبة جامع الزيتونة تحت رقم 10482 ⁷.
- كتاب الأموال: كتاب متعلق بالنظام العقاري و الذي سنتحدث عنه فيما بعد.
- والعديد من النوازل التي أوردها الونشريسي ⁸ (ت 1508 / 914) في كتابه المعيار، و أيضا القاضي عياض في كتابه مذاهب [الحكام].

2- كتاب الأموال :

لقد استخدمنا مخطوط كتاب الأموال المحفوظ في مكتبة الإسكوريال تحت رقم 1165 عربي والذي صوّر على ميكروفيش بمعهد البحث وتاريخ النصوص - القسم العربي (IRHT) بباريس. و قد اعتبر كنسخة وحيدة من هذا الكتاب التي وصلت إلينا إلى غاية اكتشاف النسخة الموجودة في المكتبة العامة في الرباط. ثم إن الجزء الخاص منه بصقلية نشره و ترجمه حسن حسني عبد الوهاب و فرحات الدشراوي في : دراسات إستشرافية مهداة إلى روح المستشرق: ليفي-بروفنسال ⁹ أيضا نشر الدشراوي بعض المنتخبات من هذا الكتاب في حوليات الجامعة التونسية ¹⁰.

إن كتاب الاموال قد نشر حديثا من طرف رضا محمد سليم شحادة من خلال مخطوط الرباط. تتكون النسخة الموجودة في مكتبة الإسكوريال من 58 ورقة بالخط المغربي ¹¹. ثم إن الداودي لم يحرر إلا جزءا من هذا الكتاب لأننا عندما نقرأ في بيانات النسخ بعد الإشارة إلى تاريخ النسخة (السبت 23 صفر 677هـ / 15 جويلية 1278م) نجد أن الشيخ الداودي كتب الجزء الأول من الكتاب ، وأن محمد بن عبد الرحمان المغيلي أكمل الجزء الثاني. وأيضا نجد أن الكتاب يبدأ ب " أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي قال " و حتى هذه العبارة تتردد بشكل واضح في الجزء الثاني من الكتاب.

في هذه الدراسة الفقهية و التي تتعلق بالنظام العقاري في العالم الإسلامي حسب المذهب المالكي في المغرب وإفريقية وصقلية عرضت مسائل فرضها نظام الاراضي والضرائب المأخوذة على الأراضي، والمناجم وحق استغلال الماء . ثم إنّ العديد من النوازل وردت في هذا الكتاب وتوجد واحدة منها شغلت اهتمامنا بالخصوص والتي عدنا إلى نسختها الأصلية و نقترح ترجمتها إلى الفرنسية كالآتي¹²:

و سئل أحمد عن بيع برغواطة و شرائهم و من غنمهم، و هل تضرب عليهم الجزية إن أحابوا إلى ذلك بعد القهر ؟ و عن قوم ذكر أنهم على الكفر بنواحي أشير- و هم من صنهاجة - و هم يزعمون أنهم من العرب . قال : و هل يحملون حمل العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ؟ و كيف الأمر في الجميع ؟ قال : إذا سبي برغواطة فيعهم حائر، و استرقاقهم إذا همسوا و قسموا، و لا تقبل الجزية منهم إن بذلوها، و إنما جاء النص في الجزية في أهل الكتاب و المحوس . و كذلك القوم الذين من صنهاجة، و هم قوم من قوم يقال لهم سسولة، و من كان يمثل حالهم بنواحي كرامة و عحيسة . فمن كان هو المرتد نفسه قتل و ماله للمسلمين . و من ورت كفره عن آباءه فهو بمنزلة برغواطة، و إنما يسترقون إذا أسلموا و يجيرون على الإسلام، و أما من أسر كفره فليس فيه إلا القتل .

3- نازلة من القرن العاشر الميلادي:

وصلتنا هذه النازلة من دون أي تاريخ لأنها أدرجت في كتاب الأموال، الذي هو كتاب في الفقه . و لقد أشرنا أعلاه أن الكتاب لا يحمل إلا التاريخ الذي أورده الناسخ . لكن من الممكن جدا تحديد تاريخ تقريبي لهذه النازلة بما أن الداودي الذي استقر في المسيلة ثم بتلمسان أين توفي في 402هـ/1011 يكون قد أفتى بهذه النوازل في المغرب الأوسط سواء في المسيلة أو في تلمسان في هذه الفترة . وحسب هذه الإشارات يمكن أن نستنتج أن زمن هذه النازلة هو ما بين نهاية القرن العاشر و بداية القرن الحادي عشر الميلادي . إن هذه النازلة تدخل في الفترة التي كان فيها المغرب تحت الحكم الزييري التابع للدولة الفاطمية في القاهرة . ونهاية القرن العاشر الميلادي عرفت أيضا الغزوات التي شنّها الأمراء الصنهاجيون ضد المجال البرغواطي.¹³ ثم أن اختيار الداودي كمرجع في هذا الكفاح ضد المنشقين في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى هو بسبب المكانة التي تمتع بها ليس فقط في تلمسان أو المسيلة فقط و لكن أيضا في المغرب كافة.

تتكون النازلة التي أفتى بها بشكل عادي من سؤال وجواب . لكن المسألة مزدوجة وتتعلق ببرغواطة من جهة وبسوسالة من جهة ثانية.

والحال أن الفقيه أجمل المسألتين في نازلة واحدة . إن هذه المسألة تخص منطقتين في المغرب : جبال المغرب الأوسط بالقرب من أشير والواجهة الساحلية الأطلسية للمغرب. إن جماعة برغواطة المبتدعة -التي وصفها ابن حوقل، والبكري وابن عذارى المراكشي وابن أبي زرع الفاسي و ابن خلدون- كانت موضوع العديد من الدراسات والتي نرشد إليها القارئ. لكن يجب تحديد هوية جماعة سوسالة ومواطنها ومعرفة الديانة التي مارسها هذه الجماعة والمخرج الذي خصصه لها التشريع الإسلامي.

لمعالجة هذا الموضوع، تعتمد مادتنا الوثائقية بالخصوص على المصادر الجغرافية بالخصوص كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي (ت نهاية القرن العاشر الميلادي) ، والمسالك والممالك للبكري (ت 1153/487) ، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (كتاب ألفه في 548 هـ/1153م)، وأيضاً على المصادر التاريخية البحتة، بالأساس القاضي النعمان بن محمد (ت 363/ 974) ، وابن حماد الصنهاجي (ت 628/ 1230) ، وابن عذارى المراكشي (النصف الأول من القرن الثالث عشر)، وابن خلدون (ت 808/ 1405م) .

4- سوسالة : جماعة بربرية صنهاجية :

إن الإشارة الوحيدة عن وجود سوسالة التي تنتمي إلى القبيلة الكبرى البربرية صنهاجية تعزى إلى النازلة التي أفتى بها الداودي. لقد خصص ابن خلدون جزءاً من كتابه عن تاريخ البربر لصنهاجية وتاريخها، و يدقق على أن صنهاجية كانت في عهده القبيلة الأكثر عدداً في بلاد المغرب¹⁴ حيث كانت تنظم أكثر من سبعين بطناً والتي من بينها تلكاثة أسياد المغرب الأوسط. والحال أن لا يجب أن نخلط هؤلاء مع صنهاجية الجنوب أو صنهاجية اللثام أجداد المرابطين.

كانت تلكاثة تمثل صنهاجية المغرب الأوسط¹⁵، و هي قبيلة الحمادين (398- 547 / 1007-1152) والبادسيين بإفريقية (362-543 - 972/ 1149) . وحسب ابن خلدون فإن تلكاثة شغلت المنطقة التي تمتد ما بين المسيلة و برج حمزة "البويرة

حاليا"، ومدينة الجزائر، ومليانة إلى غاية وادي ملوية¹⁶، باستثناء بعض الجيوب التابعة لقبائل أخرى والتي من بينها بطن زنائي مستوطن في منطقة المدية وجبال الونشريس. إنه من الصعوبة بمكان تحديد البطن الذي تنتمي إليه جماعة سُسْوَالة الصنهاجية. و في الواقع ابن خلدون قد عدد القبائل الصنهاجية الرئيسية في المغرب الأوسط: تلكاتة، وبني متنان، وونوغة، وبني مزغنة (المستوطنة في مدينة الجزائر) ، وبني جعد، وبطوية، وبني يفرن، وبني خليل. هذه الأخيرة استوطنت وادي بجاية أين لجأ المهدي بن تومرت مؤسس حركة الموحدين¹⁷، ومن جهته يدقق الداودي على أن الجماعة الصنهاجية المذكورة في النازلة -سُسْوَالة - هم قوم من قوم سُمو سُسْوَالة وهذا ما يظهر على أن هذه الجماعة ليست مهمة من حيث العدد بالمقارنة مع القبيلة الكبرى الصنهاجية المستوطنة في المغرب الأوسط ألا وهي تلكاتة.

وحسب الموطن الجغرافي المذكور في النازلة يبدو أن سُسْوَالة هي جزء من تلكاتة تلك القبيلة الصنهاجية الكبرى المستوطنة في المغرب الأوسط يحدد ابن خلدون نطاق انتشارها بالحيز الذي تشغله ما بين حمزة " البويرة" و المسيلة شاملا منطقة أشير موطن الحماديين والباديسيين. وفضلا عن ذلك فالنازلة تشير إلى أناس آخرين لا ينتمون إلى جماعة سُسْوَالة و الذين يعيشون مع هذه الجماعة الصنهاجية في منطقة كتامة وعجيسة و ينتحلون ديانة مبتدعة شبيهة بديانة سُسْوَالة (ومن كان على حالهم بكتامة وعجيسة) . لكن من غير الممكن في الحالة الحاضرة من معارفنا أن نحيط بهم بشكل أدق¹⁸.

5- منطقة جبلية بالمغرب الأوسط :

إن تحديد هوية وموطن المواضع الثلاثة المشار إليها في النازلة وهي أشير وكتامة وعجيسة يطرح بعض الإشكالات والتي سنحاول توضيحها. إن تحديد موطن أشير سيكون مفتاحنا في تحديد كتامة وعجيسة. في الواقع فإن الرابط بين كتامة وأشير هو وحده من يسمح لنا بالتعرف على المنطقة التي أشار إليها المؤلف (الداودي) و هي منطقة لا صلة لها مع بلاد كتامة الكبرى، في منطقة القبائل الصغرى في بلاد الجزائر حاليا.

أ/ أشير :

مأعدا البكري، تتفق جميع المصادر على القول بأن مدينة أشير شيدّها زيري بن مناد الصنهاجي قائد قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط وخدام الفاطميين في 324هـ/935م¹⁹. وقد أشار إليها الجغرافي المشرقي المقدسي -من القرن العاشر الميلادي- مع نظيراتها من المدن بينها المسيلة وسوق حمزة وتنس. وأقدم مؤلف وصفها هو الجغرافي المشرقي ابن حوقل (ت 367هـ/977م) : "أشير مدينة بحصن يسكنها آل زيري بن مناد ولها سور حصين وأسواق وعيون تطرد وأجنة ومزارع إقليم حسن القدر".²⁰ و البكري الجغرافي الأندلسي من القرن الحادي عشر الميلادي وصف مدينة أشير قائلا "أشير هي مدينة جلييلة حصينة يذكر أنه في تلك الأفطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام، وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها... والذي بنى سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثمائة (977-978م)، وخرها يوسف بن حماد بن زيري، واستباح أموالها، وفضح حرماها وذلك بعد أربعين وأربعمائة (1048-10149م)، ثم تراجع الناس إليها بعد خمسين وأربعمائة (1063م)".

وأيضا الإدريسي الجغرافي العربي في بلاط ملك النورمان روجي الثاني والذي كتب في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي اكتفى بتقديم المعلومات التالية "وهو حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة ويبيع به كل طريفة". والوصف الجغرافي الأخير الذي نوره هنا حول أشير هو لمجهول مؤلف كتاب الاستبصار²¹ الذي كتب بخصوص أشير: "بناها زيري بن مناد الصنهاجي، وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة، وإنما بنى سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأفطار أحسن منها. وهي بين جبال شامخة محيطة بها، وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول"²².

إن المصادر التاريخية تتناقض خاصة حول تاريخ تأسيس هذه المدينة، و يطرح مشكل آخر فيما يخص التحديد الدقيق لمكان هذه الحاضرة البربرية المندثرة. وفي الواقع لقد تم إكتشاف معالم أثرية لثلاثة مواقع بجبال كاف الأخضر في التيطري غير بعيد عن المدينة. وهذه المواقع

هي : منزه بنت السلطان ، ياشير و بنية، و حسب الأثرين فإن كان قصر بني زيري²³ يقع في هذه الحاضرة الأخيرة . و في جميع الحالات فإن مدينة أشير التي ذكرها الداودي كانت تقع بجبال كاف الأخضر إلى الجنوب من مدينة الجزائر وإلى الشرق من قصر البخاري.

ب/ عجيسة :

إن نص النازلة التي عرضت على الفقيه المالكي "الداودي" تكتفي بالإشارة إلى نواحي أشير . لكن الإجابة تحدد هذه المناطق : عجيسة و كتامة . إن عجيسة هي قبيلة بربرية من المغرب الأوسط ، ثم إن ابن حزم الأندلسي (ت 1063/456)²⁴ و ابن خلدون (ت 1405/808)²⁵ يتفقان على القول بأن هذه القبيلة البربرية الصغيرة هي فرع من البرانس حسب التقسيم العام للنسابة العرب . والنص الأكثر قدما الذي نمتلكه عن عجيسة هو نص فاطمي. إن القاضي النعمان بن محمد (ت 974/ 363) القاضي الكبير الفاطمي لإفريقية يشير إلى فتح الجيش الفاطمي بقيادة أبي عبد الله الداعي لقلعة وشنوك انطلاقا من معقله في ميلة أين هب على سطيف من أجل قتال عجيسة وكان أن أخضعهم وأقروا بالسيادة المطلقة للفاطميين . ومن هذه المعلومة أمكن الإستنتاج أن موطن عجيسة هو غرب سطيف صوب المسيلة .

إنّ البكري (ت 1094/487) الذي كتب مصنفه الجغرافي مرتكزا على المعلومات الشفوية والمدونة في كتب عصره ذكر مرتين عجيسة : أولا " فحص عجيسة " بالقرب من الغدير ، ثم " جبل عجيسة " حول مدينة المسيلة . إن هاتين الإشارتين من البكري تسمح لنا بتحديد موطن عجيسة ما بين شمال المسيلة والغدير . هذه الحاضرة الأخيرة " الغدير " كانت قرية تقع في الجنوب الغربي من سطيف وإلى الشمال من قلعة بني حماد . ثم إن ابن حماد الصنهاجي (ت 1232/628) فقيه و مؤرخ المغرب الأوسط أشار أيضا إلى بلد عجيسة. وفيما يخص معركة كيانة بين الفاطميين و المتمردين الإباضي أبو يزيد النكاري في 947/336 ثم توجه (قيصر) إلى أوسجيت وهي بسفح جبل القلعة من جهة الشمال مما يلي بلد عجيسة، فهرب أهلها منه وصاروا مع أبي يزيد. ثم توجه إلى بني عوسجة وهم من عجيسة" و أيضا

حسب هذا النص فإن موطن عجيسة يتموقع في الجزء الشمالي من جبل قلعة بني حماد و يمتد إلى غاية جبال قلعة كيانة²⁶.

لقد خصص ابن خلدون في كتابه لمحة صغيرة عن قبيلة عجيسة : " عجيسة وهم من بطون البرانس من ولد عجيسة بن برنس... وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلة على المسيلة وكانت منهم يسكنون جبل القلعة... وراموا كيد القلعة فستلحمهم السيف ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم عياض بذلك الجبل عياض من أفاريق العرب الهلاليين" وهنا بالتأكيد ابن خلدون لم يصف شيئا بالنظر للذين سبقوه ، و إن لم يذكر عند هؤلاء و جود بطن من عجيسة في منطقة تونس، والتي لا صلة لها مع منطقة أشير المذكورة في النازلة واستقرار قبيلة عياض العربية الهلالية، لكنه يدقق على أن قلعة كيانة كانت تقع في بلاد عجيسة. و في الأخير فإن الداعية الإسماعيلي عماد الدين إدريس القرشي(ت 872-1488) والذي أعاد نسخ المصادر الفاطمية المغربية الخاصة بالقرن العاشر الميلادي يحدد موطن عجيسة في المسيلة وفي ناحية بجاية²⁷.

ومن كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن بلاد عجيسة تمتد ما بين شمال المسيلة والغدير وقلعة كيانة، وتظم بالخصوص الجزء الشمالي من جبل قلعة بني حماد، و الذي يسمى حاليا المعاضيد، إلى غاية آثار قلعة كيانة. إن هذه المنطقة الجبلية حملت اسم سكانها الأوائل "بلد عجيسة أو جبل عجيسة" على الأقل إلى غاية القرن الحادي عشر الميلادي وحتى و إن تم تهجير السكان الأصليين لعجيسة "الموطن" على ثلاثة مراحل و هي كالآتي : حملة أبو عبد الله الداعي عند تأسيس السلالة الفاطمية والذي جند وحدات تنحدر من هذه القبيلة في جيشه الإفريقي، ثم ما قام به أبو جعفر بن حمدون الأندلسي عامل المسيلة الفاطمي، والذي نقل عدد معتبر من قبيلة عجيسة من أجل إعمار مدينته الجديدة، ثم المجزرة التي قام بها الخليفة المنصور خلال معركة كيانة حيث قضى على بطنين من هذه القبيلة بسبب مناصرتهم للمتمردين أبي يزيد.²⁸ ومن جهته قام حماد بن بلكين -مؤسس القلعة في جبل عجيسة- بإبعاد و قتل جيرانه من عجيسة و هو ما سمح لقبائل عياض العربية الهلالية بالتوغل في هذه المنطقة الجبلية.

ت/كتامة :

كتامة هي اسم المكان الأخير الذي ذكر في النازلة و هو الأكثر صعوبة من حيث تحديد موقعه. في البدء من المفيد التذكير على أن كتامة هي قبيلة بربرية كبيرة من البرانس والتي تحوي العديد من البطون، من بينها بني سكتان، وإجانة، ولهيسة، ومتوسة وبني زلدوي. ثم إن البكري يفصل بوضوح ما بين مقاطعات المغرب الأوسط : بلاد صنهاجة، وبلاد قسطنطية وبلاد كتامة . إن هذا التقسيم يتأسس على العنصر الاجتماعي والتنظيم الإداري تحت حكم الفاطميين والحمايين²⁹.

إن المصادر التاريخية والجغرافية تتفق على وصف بلاد كتامة والتي تمتد - في الفترة التي تهمنا- من عنابة إلى بجاية وأيضاً إلى غاية المدن التالية : قسنطينة والقل وجيجل وميلة وإكجان وسطيف والغدير وبلزمة ودكمة ومرسى الدجاج، وبلدة تامسنت الواقعة قرب المسيلة. لكن موضع الإشكال الذي يطرح نفسه هو كالأتي : إن موطن كتامة المشار إليه في نازلة الفقيه الداودي يقع في منطقة أشير، وعليه أين يوجد بالتدقيق موطن كتامة؟ ولماذا سميت كتامة في حين أن سكانها صنهاجيين؟ . إن الإقليم المأهول في بداية العصر الوسيط من طرف قبيلة كتامة تقلص على مر القرون.

في زمن ابن خلدون كانت القبائل الكتامية تسكن الأراضي التي تمتد من عنابة إلى بجاية و أيضاً ما بين جبال الأوراس والبحر . إلا أن البعض من البطون الكتامية إستوطنت من قبل خارج الإقليم الذي حدده ابن خلدون " القبائل الصغرى".

فيما يتعلق ببداية الفاطميين يظهر القاضي النعمان بأن عجيسة و زواة كانتا تجاوران كتامة، وفي نفس الفترة وصف ابن حوقل مقاطعتي إفريقية وتيهرت حيث يذكر حضور كتامة " القبيلة" في الحواضر القريبة من المسيلة و هي : المهريين وتامسنت ودكمة³⁰ وأوسجيت. وقرن من بعد يكرر الإدريسي ما قاله القاضي النعمان، مضيفاً تواجد هذه القبيلة في جبال الونشريس³¹.

إن المعلومات الوصفية التي أوردناها لا تحدد بالضبط ناحية كتامة التي تقطنها قبيلة صنهاجية. لكن يمكن أن نستنتج أن كتامة كانت مجاورة لعجيسة و هذه الأخيرة كما رأينا استقرت في المنطقة الجبلية ما بين أشير و قلعة بني حماد. و يمكن لنا أن نعلم على ابن عذاري

المراكشي خاصة في تحديد ناحية كتامة بشكل دقيق، لأنه في كتاب البيان حرص على أن جبل كيانة (حصن أبي يزيد) أين لجأ و تحصن المتمرّد الإباضي أبو يزيد النكاري يقع في كتامة. و قد كتب ابن خلدون حول تأسيس قلعة بني حماد : " في سنة 398هـ/ 1007م اختط حماد مدينة القلعة قرب كتامة ، وهو الجبل الذي يسمى عجيسة ".³² و قول ابن خلدون هذا يدعم ويؤكد تحديدنا للأماكن التي نعينها بالدراسة. ثم إن المنطقة الجبلية التي تقع بالقرب من قلعة كيانة إلى الشمال من قلعة بني حماد (هذه الأخيرة ستشيد بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة) قد حافظت على اسمها " كتامة " على الرغم من اختفاء سكانها الأوائل. والحال أن غياب المدن في المنطقة قبل تأسيس قلعة بني حماد في 398 / 1007 - 08 يعقّد أيضا من مسألة الأسماء المستخدمة لتسمية هذه المنطقة، وهذه هي مبرر ذكرها في سؤال النازلة بمنطقة أشير ثم عجيسة وكتامة في الجواب³³.

إن المنطقة التي سكنها البطن الصنهاجي -سُؤاله- تتطابق مع المنطقة الجبلية التي ما بين قلعة بني حماد و أشير، و الأسماء المستخدمة في وسم المنطقة تعود وتعلق بالسكان الأوائل : و هذين الاسمين هما كتامة و عجيسة (جبل عجيسة). إن جبل عجيسة يمتد إلى الشمال من جبل القلعة، وكتامة على ما تبقى من الجبل مع احتواء قلعة كيانة. إن الاسمين كتامة وعجيسة سيندثران تدريجيا و سيعوضان ب " جبل قلعة بني حماد" و جبل عياض الذي هو اسم القبيلة الهلالية الذين سيطرت على هذه الجبال. وإلى يومنا هذا فإن جبال قلعة بني حماد يطلق عليها جبال المعاضيد و جبل الرحمة³⁴.

6- توفيقية من الشعائر :

بعد تحديد التعريف بسؤاله وتحديد موطنها وجب أن ندقق في الديانة التي مارسها هذه الجماعة، وبعد قراءة النازلة خرجنا بالملاحظات التالية :

- هذه الجماعة لم تكن لا مسيحية و لا يهودية بما أن النازلة ذكرت بأن الجزية لم تفرض إلا على أهل الكتاب، وهو ما لا ينطبق على هذه الجماعة.
- هذه الجماعة لم تكن مجوسية: و الفقيه يدقق على أن الجزية لا تخص هذه الجماعة البربرية لأنها تخص فقط أهل الكتاب والمجوس. ونحن نعلم أن الفاتحين المسلمين قد فرضوا الجزية على

البربر الذين بقوا على وثنيّتهم. وذكر سحنون بن سعيد التنوخي مؤسس المذهب المالكي في المغرب الإسلامي - في المدونة الكبرى نقلا عن مالك بن أنس أن الخليفة عثمان بن عفان قد فرض الجزية على البربر وأن الرسول صلى الله عليه و سلم اعتبر جميع الأمم الغير مسلمة مثل المجوس³⁵. ومن جهته أوضح أبو عبيد القاسم بن سلامّ البغدادي (ت 838/224) مؤلف كتاب الأموال أن الخليفة عثمان بن عفان قد قبل جمع الجزية التي دفعها البربر على الرغم من أن هؤلاء كانوا وثنيين و ليس مجوسا مثل الفرس³⁶.

● على الرغم من كون الخوارج والإباضية أعداء المذهب المالكي في بلاد المغرب إلا أن السلطات المالكية في بلاد المغرب لم تعتبرهم أبدا كفارا. و في الفترة التي أفتى فيها الداودي بهذه النازلة، يبدو من خلال قراءة المصادر عدم بقاء فرق خارجية أخرى ماعدا الجماعات الإباضية. ثم إن مصير الإباضية قد حدّده أحد فقهاء المذهب المالكي التابع لبلاط القيروان والحكم السلالاتي الأغلبي، فقد أقرّ الفقيه سحنون مؤسس المدرسة المالكية في القيروان القرار السياسي الذي اتخذته بني أمية والمالكية الشرقية فيما يتعلق بفرق الخوارج والتي من ضمنها الإباضية.

حثّ هذا القرار على دعوة الخوارج إلى العدول عن مذهبهم أو تصفيتهم. ثم إن ابن أبي زيد القيرواني قد أجاز قتال الخوارج الذين يضايقون أهل السنة. وقد وجب انتظار النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي حتى يصل الفقهاء المالكية الى تعميق معارفهم عن الأصول العقدية للإباضية الوهيبية. ويُفسّر هذا التطور بالتغلغل المالكي في مناطق نفوذ الإباضية. وقد سمح الفقيه المالكي السيوري للإباضية بإقامة الصلاة في مساجدهم وهذا يعد تطورا في الموقف بالنظر إلى سابقه، لكن هذا الفقيه لم يختلف عن مالكية القيروان بما أنه لم يجرّز زواج السنة من الإباضية . ثم إن مالكية المغرب أقرت بوجود الإباضية الوهيبية وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على أن الكفار المذكورين في النازلة ليسوا من الإباضية³⁷.

● إن الديانة التي مارستها جماعة سُسْوَلة تتطابق مع توفيقية دينية متأثرة بالإسلام والطقوس البربرية. وفي الواقع فالداودي قد أفتى بنفس الحكم في مسألة برغواطة و سُسْوَلة، و قد أمر الفقيه بعدم قبول الجزية التي تدفعها برغواطة و سُسْوَلة لأن الجزية لا تخص إلا أهل

الكتاب والمجوس. ونخلص إلى أن ديانة سُسْوَلة تشبه ديانة برغواطة، والتي وجب تخصيص بعض الأسطر لها بما أنها أكثر شيوعاً من نظيرتها السُسْوَلية³⁸.

7-ديانة برغواطة:

كانت برغواطة عبارة عن اتحاد قبلي بربري الذي أسس مملكة في تامسنا على طول الشريط الساحلي الأطلسي للمغرب الحالي، مابين سلا وأزمور ضمنه الدار البيضاء. ولقد تأسست هذه المملكة بعد فشل الثورات الشعبية الخارجية ضد ولاة ورموز السلطة الأموية في القيروان والمغرب في القرن الثامن. و قد دامت إلى غاية مجيء الموحدين في القرن الثاني عشر الميلادي.

إذا كان كتاب صورة الأرض لابن حوقل هو الأكثر قدماً من بين الكتب التي تحدثت عن تاريخ برغواطة، فإن البكري يعتبر المصدر الرئيسي الذي يتحدث عنهم. والمصادر الأخرى مثل البيان لابن عذاري المراكشي، و الأنيس المطرب لابن أبي زرع الفاسي والعبر لابن خلدون متأخرة وعلاوة عن ذلك فهي متوافقة. وقد روي تاريخ برغواطة من ثلاث طرق مختلفة : الأولى رسمية ونقلها البكري و الذي أعاد نسخ النصوص البرغواطية نفسها. والثانية مشرقية ونقلها ابن حوقل . والثانية مغربية بحثة سردها ابن عذاري المراكشي وابن أبي زرع الفاسي وابن خلدون. و عليه لا يوجد أي نص كتبه أحد البرغواطيين أو أحد المشايخين لهذه الديانة بما أن جميع المعلومات التي نقلت إلينا تتأثر بنزعة ناقلها، وحتى البكري الذي يستند إلى نصوص حررها برغواطيين أنفسهم³⁹.

يمتزج التاريخ السياسي لبرغواطة مع تاريخ مملكة بني طريف التي سيطروا عليها. ولقد أسس هذه المملكة طريف عقب فشل الثورات الخارجية الصفيرية بقيادة ميسرة المطغري ضد الوالي الأموي على القيروان ما بين 122-740/124-742. وكان أن لجأ طريف إلى منطقة تامسنا أين أسس مملكة مستقلة عن الحكم العربي وقد تعاقب على مملكته خلفاءه إلى غاية ظهور المرابطين. ومحمد الطالبي يؤكد على أن البرغواطيين يُعرفون بعقيدتهم أكثر من انتمائهم القبلي بالنظر لعدد القبائل التي ضمته هذه المملكة⁴⁰.

لقد تأسست بدعة برغواطة في الوهلة الأولى على يد صالح بن طريف ابن مؤسس المملكة. و قد ادعى النبوة بعد تلقيه الوحي القرآني بالبربرية. و يذكر ابن حوقل الذي جمع هذه المعلومات في 2-951/340 أن صالح بن طريف استند في ادعائه النبوة إلى آيات قرآنية. و هذا الرجل هو صالح المؤمنين الذي ذكره الله في القرآن.⁴¹ وكان أن مرر صالح بن طريف ملته إلى ابنه إلياس (177-227/793-842) وإلى غاية عهد القائد البرغواطي الثالث بقيت البدعة البرغواطية محصورة في الأسرة الحاكمة خوفا وحذرا. والحال أن التعليم العام لهذه الديانة البرغواطية يكون قد بدأ حسب مصادرنا في عهد القائد الرابع أي يونس بن إلياس (227-271هـ/842-884م).⁴² وإليكم ما قاله المبعوث الرسمي للبرغواطيين في بلاط قرطبة عام 963/352، والذي نقل خطابه البكري: "فتولى الأمر بعد أبيه فأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة، حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إيّاه". و بالمختصر فإن المصادر تجمع على أن يونس فرض ديانتها بالقوة والنار.⁴³

و فيما يخص الخطوط العريضة لهذه الديانة فالمصادر توضح على أن صالح و يونس و أبي جعفر قد ادعوا النبوة، وحسب ابن حوقل فإن الديانة البرغواطية تتمثل بهذه الطريقة الموالية: إن نبوة صالح بن طريف قد تكون مسجلة في قرآن بربري، والمؤسس يكون قد أجبر البربر على صيام شعبان بدلا عن رمضان. وابن عذاري المراكشي يضيف بأن هذه الديانة تفرض خمس صلوات بالنهار و خمس صلوات بالليل والعديد منها دون سجود، والنحر يكون في الحادي عشر من محرم، و قد تم تعديل الوضوء الإسلامي.... إلخ. كان قرآن برغواطة بالبربرية و يتكون من ثمانين سورة يبدأ بسورة أيوب و ينتهي بسورة يونس. ويُذكر أن القسم الأكبر من سوره تحمل أسماء الرسل الذي ذكرهم القرآن الإسلامي. و أيضا تبدو الديانة البرغواطية كخليط توافقي من الشعائر والطقوس و الممارسات المتأثرة خاصة بالإسلام. ومحمد الطالبي يؤكد " بأن هذه الديانة كانت ثمرة التثاقف في خدمة الحب الخاص النقي والحقيقي الوطني المجروح ". ولقد بحث البرغواطيون عن بربرية الإسلام من أجل إثبات هويتهم، لكن رد الفعل هذا لم يسلم من تأثير الإسلام.⁴⁴

8- من برغواطة إلى سُسْوالَة:

لقد ذكر المؤلف المجهول لكتاب الجمان الشخصيات البربرية الثلاث التي ادعت النبوة و هي صالح بن طريف، وعاصم بن جميل، وحميم بن منا الله، أنبياء في برغواطة وغمارة. في المقابل لا توجد أية اشارة مباشرة تتعلق بنبي محتمل مؤسس لسُسْوالَة، لكن المقارنة ما بين هذه المجموعات المختلفة تسمح لنا طرح بعض الفرضيات⁴⁵.

لقد تأسست الديانة البرغواطية بعد فشل الثورات الخارجية ضد الولاة العرب في القيروان، ولقد كان رد فعل أحد القادة الخوارج هو اللجوء الى تامسنا وتأسيس مملكة بربرية خالصة. والحال أن المصادر الفاطمية التي تروي تفاصيل عن المنطقة التي لجأ إليها المتمرّد الإباضي المشهور " أبو يزيد" المكنى بصاحب الحمار لا تشير البتة إلى سُسْوالَة أو أية جماعة خارجية أخرى مهما كانت. لكن هذه المصادر التي تروي السردية الرسمية الفاطمية تفصل في القبائل الموالية لأبي يزيد وتقدح فيها بكلمات مثل الدجالون والملاعين .. إلخ. وعليه يمكن أن نفترض أن العديد من هذه القبائل اتبعت شكلا تصوريا خاصا بها عن الإسلام بعد النهاية المأساوية للقائد أبي يزيد وأتباعه في قلعة كيانة في 947/336⁴⁶. إن هذا التحول يمكن ارجاعه إلى نتائج الخسارة التي تكبدتها الثورة الخارجية البربرية ضد حكم عربي شيعي ستند على بربر كتامة والعبيد الصقالبة. وسُسْوالَة المستقرون حول قلعة كيانة شاركوا من دون شك في تمرد أبي يزيد ابن شداد الصنهاجي (ت بعد 1204/600) مؤلف كتاب اخباري يعنى بتاريخ المغرب المعنون ب الجمع والبيان في اخبار المغرب والقيروان يروي في مقتطف نقله عنه النويري واقعة مفادها أن قائد مبتدعة غمارة تمّ إعدامه في أشير في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. و حسب هذا المؤلف فلقد هاجم زيري بن مناد قائد صنهاجة في أشير غمارة في المغرب الاقصى عندما ادعى قائد هذه القبيلة النبوة، وكان أن قتل مناد بن زيري العديد من أفراد هذه القبيلة مصطحبا معه قائدها الذي أعدمه في أشير. وإنه لمن المفيد ذكر النقاش الذي جرى بين بني غمارة وفقهاء أشير :

- الفقهاء : إن كنت نبيا حقا ماهي علامات النبوة ؟

نبي غمارة : إسمي موجود في القرآن .

الفقهاء : ما هو إسمك ؟

نبي غمارة ؟ اسمي حميم، واسم أبي جاء من الله، و في القرآن حميم هو نزول الكتاب من عند الله القوي الحكيم ؟⁴⁷.

و الحال أن المغرب الأوسط لم يعرف إلى هذه الفترة حركة انشقاق كبيرة على منوال سُسْوَلة زمن ذهاب صاحب أشير إلى المغرب الأقصى من أجل وأد بدعة غمارة. وبما أن سُسْوَلة يقطنون في منطقة انتشار كتامة وعجيسة على بعد ما يربو عن ستين كلم من أشير فإن بداية بدعة صنهاجة-سُسْوَلة لا يمكن أن تكون سابقة لمعركة كيانة. لكن ما يمكن ملاحظته هو أن الأفكار البدعية دخلت المغرب الأوسط في هذه الفترة بعد أن تم جلب مدعى نبوة غمارة إلى أشير متحدًا أمام السكان⁴⁸.

المصنّف الاسماعيلي عماد الدين ادريس أورد المعلومة التالية : " وصل جفنة الخادم الى قلعة الحجاره بجيش قوامه كتامة يوم الخميس السابع رمضان (335هـ/ 02 أبريل 947م)، ووجد من بينهم ثائر و الذي تمرد في مسالته في بلاد كتامة . و لقد ادعى هذا الثائر النبوة وأحل المحرمات ". والحال أن مجال مسالته بالقرب من ميلة في بلاد القبائل الصغرى وهو مالا يتطابق مع كتامة جبال قلعة بني حماد. لكن هذه الإشارة تظهر جليا وجود محاولات بدعية في المغرب الأوسط قبل عهد سُسْوَلة، حتى و إن وجب علينا أن نكون يقطين إزاء المصادر الفاطمية بما أن ذلك يندرج ضمن العلاقات بين السلطة الفاطمية والمعارضة، لأنها تتميز بالدعاية الإسماعلية⁴⁹.

لقد حُكِم على سُسْوَلة بنفس الطريقة التي حُكِم بها على برغواطة في الفقه المالكي. وفي الواقع فإن الداودي لم يكن موافقا على دفع كلا الجماعتين " سُسْوَلة وبرغواطة " الجزية . وقد أمر بسلبهم وبيعهم ومطاردتهم عندما أصر هذا الفقيه بأن هاتين الجماعتين لم تكونا لا مجوسيتين ولا يهوديتين ولا مسيحيّتين بما أن هؤلاء وجب عليهم دفع الجزية. وكلمة كفار التي أُطلقت على سُسْوَلة وبرغواطة تظهر — بالنسبة للفقهاء — أن هؤلاء "المبتدعة" قد اعتبروا

خارجين عن الملة تماماً، وذلك من دون شك بسبب رفض هذه الأشكال الإسلامو-بربرية من التوافق الدينى⁵⁰.

إن النص الفقهي الوارد في النازلة والمطبق على برغواطة وسؤاله ليس بجديد. فلقد رأينا بأن قائد صنهاجة المغرب الأوسط كيف أباد أهل غمارة. عادما لقائدها بأوامر فقهاء أشير. ثم إن ابن حوقل وهو أول من كتب عن برغواطة وصف في مصنفه الجغرافي "رباط سلا" الموقع في منطقة حدودية أين كان يهاجم وينهب المسلمون برغواطة. وأما الجديد في نازلة الفقيه المغربي الداودي هو الترخيص بالبيع والشراء وإبادة هاتين الجماعتين المبتدعتين. بيد أن تكملة إجابة الداودي تقودنا إلى التفريق بين المصير الذي سبقت له سؤاله والمصير الذي سبقت له برغواطة. ففي البداية ميّز الداودي بين رجال سؤاله : الذين ارتدوا طواعية والذين ورثوا الدين عن آبائهم. فالبنسبة للأوائل فقد أمر الفقيه بقتلهم، وفي الحالة الثانية فقد طبق عليهم نفس النص الخاص ببرغواطة : فقد سمح بسلبهم ونهبهم واسترقاقهم ناهيا عن فرض الجزية عليهم. ثم إنه أضاف فيما يخص الفئة الثانية من سؤاله حكم مفاده تعقبهم. والفرق الثاني بين برغواطة وسؤاله أن الأولى أقدم من الثانية. والحال أن الداودي عندما فرق بين فئتين من سؤاله حدد بدقة الرأي الخاص بكل فئة. إن هذا التفريق يدعم ويقوي فرضيتنا حول أصل البدعة التي وقعت فيها هذه الجماعة الصنهاجية، والتي ظهرت بعد النهاية المأساوية للثورة الخارجية بقيادة أبي يزيد النكاري في 336هـ/947م. وفي الأخير أمر الداودي بقتل أفراد سؤاله الذين يخفون ديانتهم بممارستها خفية في بيوتهم⁵¹.

9- اللغة العربية و بربر صنهاجة :

توجد مسألة أخرى طرحتها هذه النازلة ألا وهي مسألة اللغة. نقرأ في الجزء الأول منها بأن هذه الجماعة أسلافها ينحدرون من العرب وهو ما يفنده الداودي الذي يقر بالهوية البربرية لهذه الجماعة. لكن المشكلة ليست هنا، بل في اللغة العربية المستعملة من قبل هذه الجماعة. وبما أن هؤلاء يدعون أنهم عرب فمن الواجب عليهم التحدث بلغة العرب. وهل إنتشرت اللغة العربية في قبائل صنهاجة قبل التوغل الهلالي؟

إن ما نملكه من معلومات حاليا لا يسمح لنا بالإجابة الشافية عن هذه المسألة. وقد كتب المقدسي عند وصفه لمغرب زمانه: " إن لغة أهل المغرب هي العربية لكن لغة عربية أقل ووضوحا و تختلف عن اللسان الذي ذكر استخدامه في المقاطعات الأخرى ". إن هذه المعلومة جاءت من رحالة مشرقى الذي يعرف المغرب قليلا وخاصة مناطق الجبلية. حيث يقول أن المغاربة يتحدثون لغة عربية تختلف عن العربية المشرقية، أي لغة جهوية ممزوجة بكلمات و تعابير محلية . ويؤكد محمد الطالبي المتخصص في المغرب الوسيط وجود العديد من اللغات، بربرية بالأساس والتي إنتشرت في جميع أرجاء المغرب بالخصوص الأرياف والجبال⁵². ثم إن المصادر البربرية تقدم لنا معلومات أكثر دقة، فهي تظهر أن اللغة العربية ومختلف اللغات البربرية كانت منتشرة، لكن توجد ملاحظتين تخص صنهاجة تستحق التوضيح هنا.

خصص أبو العباس الدرجيني (ت 1271/670) -مؤرخ السير والتراجم الإباضي وهو من قلعة درجين- ترجمة لأبي سهل الفارسي آخر ترجمان الرستميين بتيهرت في القرن التاسع الميلادي، حيث ذكر فيها أنه عاش في جزائر بني مزغنة⁵³ و هي مدينة تقع في بلاد صنهاجة أين نظم أشعارا باللغة البربرية. و إنه لمن الصعب التدقيق أن هاته اللغة البربرية أو تلك كانت مستخدمة في بلاد صنهاجة، لكن من الممكن التخمين أن اللغة العربية كانت أقل انتشارا من اللغات البربرية في هذه المنطقة الصنهاجية في هذه الفترة⁵⁴.

وأبو الربيع الوسياني مؤرخ السير الإباضي الكبير من القرن السابع الهجري/الثاني عشر الميلادي أورد نقاشا بين العالم الإباضي عبد السلام بن منظور و تاجر صنهاجي، والذي نفهم من خلاله أن العالم الإباضي قد اكتشف بأن التاجر صنهاجي لأنه استخدم كلمة " در " و التي يقابلها بالعربية " أعطى " . و يبدو من هذا المقتطف أن اللغة المستخدمة بين التاجرين كانت العربية وأن اللغة العربية الخاصة بالتاجر الصنهاجي كانت ممزوجة بكلمات و عبارات تختلف عن اللغات البربرية الأخرى⁵⁵ .

لقد كانت المسألة اللغوية موضوع العديد من الدراسات التاريخية لكنها لم تصل إلى إجابات شافية. وفيما يخص الفترة التي نتمنى أن الإشارات التي أوردناها لا يمكن أن تحل هذه المسألة بشكل نهائي. والحال أن الأصل العربي المدعى من طرف سُسْوالَة و جب أن يرافق

باستخدام اللغة العربية، لكن في تلك الفترة ظهرت صنهاجة في الحياة السياسية كمولى للفاطميين، وقد أعطي الأصل العربي لصنهاجة مثلما أعطي لكتامة. إننا نجهل أصول هذا الغزو لكن النسابة العربي ابن الكلبي (ت 819/204) كان هو الأول من قدم هذه النظرية والتي أخذها عنه من أتى بعده من النسابة العرب والبربر وطورها الفاطميون والزيرونيون⁵⁶.

تخمينات عن حول مصير سُسْوَالة :

إن المنطقة التي قطنتها سُسْوَالة كانت تظم قبل تأسيس قلعة بني حماد ثلاثة قلاع وهي: قلعة كيانة وقلعة الحجاره وقلعة شاكر. إن الأولى هي الأكثر أهمية والتي خرّبها الجيش الفاطمي أثناء المعركة الأخيرة ضد الخوارج. وبداية من 398هـ/1007م عرفت هذه المنطقة الجبلية بناء مركز حضري كبير : إنها قلعة بني حماد والتي أصبحت فيما بعد العاصمة السياسية للحماديين وقطب اقتصادي لبلاد المغرب. إن المنطقة الجبلية لكتامة وعجيسة عرفت إذا حضور حمادي قوي وأيضاً تأثير ثقافي عربي - إسلامي الذي أخذ في التعمق⁵⁷.

لقد تجاهل الاخباريون تماماً تواجد ومصير سُسْوَالة . و هذه الجماعة لم تذكر قط بعد تأسيس قلعة بني حماد. وفيما يتعلق بعجيسة يذكر ابن خلدون أن هؤلاء البربر كانوا الوحيدون الذين نفاهم الحماديون بقيادة حماد بن بلكين، وما يقوي تأويلنا : لقد كانوا كلهم مثل سُسْوَالة أي جماعة منشقة وعليه جماعة خطيرة. والسؤال المطروح هو : هل اختفت جماعة سُسْوَالة في العهد الحمادي؟ يمكننا أن نفترض ذلك، لكن فرضية كهذه تعزوها هنا الأدلة الدامغة لأن المصادر صممت عن مبتدعة المغرب الأوسط هؤلاء⁵⁸.

الخاتمة :

في نهاية هذه الدراسة ماهي النتائج المستفاد من استغلال النازلة التي أفتى بها الداودي؟ في البداية هو التكلم عن جماعة بربرية سكنت منطقة جبلية تقع شمال قلعة بني حماد. إنها سُسْوَالة وهي بطن صنهاجي تجاهلته كتب الأخبار، وكتب التراجم والسير، وكتب الجغرافية الوصفية. و هذا ما يفسر بأن منطقة كتامة وعجيسة تقدم مثالا مميزا عن منطقة لم يتم ادماجها بشكل جيد في المجال الإسلامي المغربي والتي فلتت من الحكم العربي المركزي قبل تأسيس قلعة بني حماد. و يمكننا أن نفترض وجود جماعات بربرية أخرى مماثلة في المغرب الأوسط لكن

سكنت عنها المصادر التاريخية بسبب "بدعتها". وهذه الجماعات التي كان اندماجها في المجتمع الإسلامي ضعيفا طرح مشكلا فقها بالنسبة للفقهاء المالكية. فالداودي الذي يعد أحد المراجع المالكية في بلاد المغرب التي لا جدال فيها لا يعتبر سُؤاله مثل اليهود ولا مثل النصارى أو المجوس ، لكن ككفار. إن حالة سُؤاله تندرج ضمن جدلية حادة ومستمرة ما بين "القوى العليا" و "القوى السفلى" واللذان تتعارضان في الغاية و القصد حسب المخطط الهيكلي الذي اقترحه محمد أركون⁵⁹.

تشكل " القوى العليا " عن طريق التضامن الوظيفي بين الدولة، وكتابات المؤرخين والفقهاء، والثقافة واللغة والدين المرتبط بالدولة بفضل موظفي المقدس المعينين من طرف الحكم. هذه القوى الأربعة تسيطر على " القوى السفلى" وهي : المجتمعات المجزأة، والمشافهة والثقافة و اللهجات الشعبية، والبدع ، وهي نفسها محكوم عليها بالاندثار عن طريق استيعابها في الوسط السوسيو - ثقافي الرسمي، وتصبح بقايا ومخلفات التي لا تتوقف عن مقاومة الفعل الرسمي للحكم المركزي . إن هذا الإطار من التحليل ينطبق تماما على مجتمع المغرب الأوسط في نهاية القرن العاشر الميلادي. إن التعارض المباشر بين "المذهب الرسمي" الذي يمثله الفقهاء المالكية و"بدع" سُؤاله يندرج ضمن جدلية حادة بين " القوى العليا" و "القوى السفلى". ساند الحكم السلالاتي المستقر بأشير ثم بقلعة بني حماد أصحاب المعرفة العقديّة في حين أن حركة "مقاومة" سُؤاله كانت مدعومة بالثقافة شعبية والمشافهة. لكن هذه الحركة السفلية لم تكن بمعزل عن التأثير الثقافي للقوى العليا والذي انتهى باحتضان جزء من ثقافتها. إن حركة سُؤاله انتهت بعد تأسيس قلعة بني حماد في المنطقة التي قطنتها سُؤاله لأن الحكم المركزي أبان عن تضامن مستمر مع قوة " الفقهاء " ضد " البدع".

الهوامش:

- ¹كلود كاهن: مقدمة لتاريخ العالم الاسلامي في القرون الوسطى بين القرنين السابع و الخامس عشر الميلاديين، باريس، 1982، ص 75.
- ²المرجع نفسه: ص 74
- ³المرجع نفسه: ص 75.
- ⁴القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أبو محمود، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967، ص 623.
- ⁵ابن فرحون المالكي: الدباغ المذهب في معرفة أعيان المذهب، تح: أبو أحمد أبو النور، دار التراث العربي، مصر، 1972، ص 165-166.
- ⁶القاضي عياض: المصدر السابق، ص 623؛ ابن فرحون المالكي: المصدر السابق، ص 166.
- ⁷ابن فرحون المالكي: المصدر نفسه، ص 166.
- ⁸أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب مج1، 2، 3، تح: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ص 7، 382، 421.
- ⁹ليفني-بروفنسال: النظام العقاري في صقلية خلال العصور الوسطى، مج2، باريس، 1962، ص 401-444.
- ¹⁰حوليات الجامعة التونسية، مج4، 1967، ص 83-100.
- ¹¹تم اصدار كتاب الأموال من طرف الأستاذ سليم شحادة، رباط دار احياء التراث المغربي، سنة 1986.
- ¹²حوليات الجامعة التونسية، مج4، ص 100.
- ¹³النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مج24، تح: ناصر الأهواني، دار الحياء المصرية، القاهرة، 1983، ص 162.
- ¹⁴ابن خلدون: كتاب العبر، ج6، مؤسسة الجمل للنشر، بيروت، ص 461.
- ¹⁵المصدر نفسه: ص 461.
- ¹⁶المصدر نفسه: ص 153.
- ¹⁷المصدر نفسه: ص 152-153، 227.
- ¹⁸ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج1، دار صادر، بيروت، 1977، ص 170.
- ¹⁹نذكر على سبيل المثال ابن حوقل، صورة الأرض، ج2، دار صادر، بيروت، 1938، ص 89؛ مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في اعاجيب الأمصار (وصف مكة والمدينة..)، تر: سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، كلبة الآداب جامعة الاسكندرية، 1958، ص 170.
- ²⁰البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا، تحقيق دو سلان، طبعة فرانكفورت، المعهد العلمي العربي الاسلامي، 1993، ص 60.

- ²¹ مجهول: الاستبصار، النص العربي، ص 170 / النص المترجم، ص 105.
- ²² الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1 تر: هنري دوزي، دار لايد، 1968، ص 99.
- ²³ حول مدينة أشير: يكتفى بقراءة " شابسيار " منطقة الكاف لخضر وآثاره " المجلة الإفريقية، ع 13، 1869، ص 116-121.
- ²⁴ ابن حزم الأندلسي: جمهرة النسب العربي، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1948، ص 461.
- ²⁵ ابن خلدون: المصدر السابق، ص 145.
- ²⁶ ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: أحمد جغلل البدوي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 42-43.
- ²⁷ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار. تح: فيصل دشراوي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1979، ص 52، 53.
- ²⁸ ابن الحماد الصنهاجي: المصدر السابق، ص 43.
- ²⁹ القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، تح: وليد القاضي، دار الأساقفة، بيروت، 1970، ص 72، 74، 94-95.
- ³⁰ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86.
- ³¹ الإدريسي: المصدر السابق، ص 253، 296.
- ³² ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1، تح: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ص 220.
- ³³ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص 171، ج 2، ص 43.
- ³⁴ القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 96.
- ³⁵ ابن سحنون: المدونة الكبرى، ج 3، مكتبة السعادة، القاهرة، 1323هـ، ص 46.
- ³⁶ أبو عبيد: كتاب الأموال، تح: محمد حارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص 39.
- ³⁷ ابن سحنون: المصدر السابق، ج 3، ص 47-48.
- ³⁸ R . le tourneau, l'occident musulman du VII E al fin du XV E Siècle ; dans annales de l'institut d'études orientales, XVI, 1985 , p151.
- ³⁹ ابن سحنون: المصدر السابق، ص 49.
- ⁴⁰ المصدر نفسه.
- ⁴¹ محمد الطالبي: " استقلال المغرب العربي "، ج 3، مقال منشور في كتاب التاريخ العام لإفريقيا، باريس، منشورات اليونسكو، 1990، ص 217-218.
- ⁴² المرجع نفسه، ص 220.
- ⁴³ البكري: المصدر السابق، ص 259.

- 44 المصدر نفسه.
- 45 كتاب الجمان، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 1547، ص 144.
- 46 المصدر نفسه، ص 145.
- 47 النويري: المصدر السابق، ص 162، 163.
- 48 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: دي جيويج، طبعة فرانكفورت، معهد الاسلامي العربي العلمي، 1992، ص 317.
- 49 عماد الدين ادريس: المرجع السابق، ص 416.
- 50 المقدسي: المصدر السابق، ص 243.
- 51 ابن حوقل: المصدر السابق، ص 82.
- 52 محمد الطالبي: "استقلال المغرب العربي"، ج3، مقال منشور في كتاب التاريخ العام لإفريقيا، باريس، منشورات اليونسكو، 1990، ص 296.
- 53 قبيلة صنهاجية التي استوطنت مدينة الجزائر وأعطت اسمها لها خلال العصر الوسيط.
- 54 الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، تح: ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسطينة، الجزائر، 1974، ص 352.
- 55 أبو الربيع الوسياني: سير المشايخ بالمغرب، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1985، ص 27.
- 56 المصدر نفسه: ص 28.
- 57 النويري: المصدر السابق، ص 163.
- 58 المصدر نفسه.
- 59 محمد أركون: "تاريخية الفكر العربي الاسلامي"، في كتاب الدولة في المغرب العربي، قراءة إيف لاكوست، باريس، 1991، ص 48-50.